العدول عن الأصل وأسراره البلاغية في باب التوكيد و تركه

(دراسة تطبيقية في ضوء الأمثلة القرآنية)

فضل الله ☆

المقدمة:

الحمدلله الذي لا حول ولا قوة إلابه، والصلاة والسلام على رسوله الذي حمل الأمانة وأدى الرسالة... صلوات الله وسلامه عليه و على آله وأصحابه ومن استنّ سنّتهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فمن المعلوم أن البلاغة العربيةمن أهم العلوم الإسلامية لفهم القرآن الكريم والتراث العربي الإسلامي لأنها من المقاييس الأساسية لمعرفة الكلام الجيد والتمييز بين الأسلوب البليغ والردئ. وقد مرت في حياتها الممتدة بأطوار تاريخية عديدة، وكانت البلاغية فى العصر الجاهلي عبارة عن الفطرة بحيث إن العرب الأقحاح كانوا لايحتاجون إلى القواعد بل كانت البلاغة منهم سجيّة، وكانت الأحكام تنصب في مجملها على الصياغة والمعاني خالية عن التعليل لأن العصر تغلب عليه حس ذوقي.

ولكن حينما نزل القرآن الكريم دهش العرب لماّ عرفوا فيه من أساليب البلاغة وألوان التعبير، رغم أنهم كانوں أهل اللغة وأرباب البلاغة وأمرا ء البيان، لقد أدركوا البلاغة القرأنية حق الإدراك واعترف بعضهم بتفرد القرآن لما عجزوا عن الإتيان بمثله ولو بآية رغم التحدى الواضح الدائم في قوله تعالى: [قل لئن

☆ محاضر في كلية اللغة العربية و الدراسات الإسلامية، جامعة العلامة إقبال المفتوحة إسلام آباد.

اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً][١] ولكن وجه الإعجاز بقى موضع النقاش والبحث، وتعددت الآراء وتنوعت المباحث حول وجه الإعجاز القرآنى أهو في الألفاظ فقط أو في المعاني فقط، أو في إخباره بالمغيبات والأمور المستقبلية، أم هو في كل هذه الأشياء؟ وكُتب فيه كثير من الكتب من القرن الأول حتى الآن ولا يزال يكتب فيها إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، لأن قضية الإعجاز لا تختص بالعصر ولا بالمكان، ولا يمكن للبشر استقصاء جميع وجوه الإعجاز وأسرار القرآن، إذ هو يفوق عن طاقته، وكل من حاول إبراز هذه الأسرار فما هى إلا محاولات بشرية تحتمل الخطأ والصواب.

وقد استفاد الدرس البلاغي من قضية الإعجاز مباشرة إلى أن جاء إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) صاحب كتابي "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" الذي جاء بفكرة النظم ووضحها قائلا "أنه تَوَخَى معانى النحويين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام"[٢] والنظم عنده ائتلاف الألفاظ ووضعها في جملتها وضعاً يقتضية معناها النحوى. ثم جاء الإمام الزمخشرى الذي طبّق آراء الإمام في تفسيره "الكشاف" وجاء الإمام السكاكى (ت: ٦٢٦هـ) بعدهما فقعّد البلاغة في كتابه "مفتاح العلوم" أثناء كلامه عن علوم المعاني ويتّسم الكتاب بالصعوبة والإيجاز، ولذا توفر العلماء المتأخرون على الكتاب وتناولوه بشرحه وإزالة غموضه، وظهر عديد من الشروح.[٣]

قد أردت أكتب في موضوع مهم وهو"العدول عن الأصل فى باب التوكيد لأهمية هذا الموضوع، واشتماله بنكت وإسرار كامنة مخفية عن كثير من الناس، وعدم وجود كتاب. فيما أعلم. مكتوب بلغة العصر، ولأدرس النصوص القرآنية الواردة في هذا المجال، واستخرج الأسرار البلاغية الكامنة فيها. واعتمدت في تحقيق تلك الغايات والأهداف على دراسة الشواهد القرآنية دراسة تحليلية .قدر

الطاقة. لتكون تطبيقا للقواعد المقررة.

وقد التزمت في هذا البحث أن أنسب الأقوال إلى مصادرها، وما نقلته بنصه وضعته بين قوسين صغرين (" ") وإذا نقلت معنى من كتاب ما أشرت إليّه في الهامش بكلمة (ينظر وانظر) ثم ذكرت المرجع وحاولت تعريف المصطلحات الواردة فى بداية كل مبحث وفصل لسهولة القارئ، كما حاولت أن أختصر في التفاصيل التي لا تتعلق بصلب الموضوع، واخترت منهجاً معينا في الإحالة وفي قائمة المراجع. وهو تقديم المؤلف وبعده اسم الكتاب ثم اسم المحقق ثم تفاصيل الطبع وأخيراً تفاصيل الجزء والصفحة.

التمهيد:

بعد هذه المقدمة السريعة في تاريخ البلاغة والمنهج أريد أن أسلّط الأضواء على المصطلحات التي ترد كثيراً أثناء البحث لأن من الأمور المألوفة والمستحسنة في البحث العلمي تعريف المصطلحات الواردة في الموضوع، ليسهل على القارئ الفهم والاستيعاب. والمصطلحات التي ترد كثيرا في الموضوع هى: الحال، مقتضى الحال، مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ثم الفرق بين الحال وظاهر الحال.

الحال:

لغة: يقال لكيفية الإنسان من فرح وحزن، وقال ابن منظور "الحال كينة[٤] الإنسان، هو ماكان عليه من خير وشر، يُذكر ويُونّث...."[٥]

أما عند علماء البلاغة فهو "الأمر الداعي للمتكلم إلى ايراد الكلام على وجه مخصوص، أى أن يعتبر مع الكلام الذى يؤدي به أصل المعنى خصوصية ما"[٦]

فمعناه "أن الحال هو الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يعتبر في كلامه شيئاً خاصاً زائداً على أصل المعنى، ويسمى حالاً من حيث أنه بمنزلة زمان يقارن ذلك الوجه المخصوص، ومن حيث أنه بمنزلة مكان حلّ فيه ذلك الوجه يسمى مقاماً"[٧]

ظهر من التعريف المذكور أن الحال أمر يقتضى من المتكلم أن يأتي فى كلامه بخاصية ما زائدة عن أصل المعنى والغرض العام، فمثلاً إنكار المخاطب حال يستدعى من المتكلم أن يأتى فى كلامه بخاصية تناسب هذا الإنكار كالتأكيد مثلاً والتوكيد هو تلك الخصوصية الزائدة التي استدعاها الحال ويطلق عليه مقتضى الحال، وهو زائد عن أصل المعنى، لأن أصل المعنى هو قيام زيد فقط، والتوكيد جاء اقتضاءً لإنكار المخاطب.

وقد عرف سابقاً أن الحال هو الأمر الداعي إلى إيراد الكلام على وجه مخصوص والأمر الداعى ينقسم إلى نوعين: داع حقيقى واقعي، وداع افتراضي أو تنزيلى. إن شاء الله تعالى. سوف يتضح ذلك عند الحديث عن ظاهر الحال.

مقتضى الحال:

كلمة"مقتضى" من اقتضى يقتضى اقتضاء معناه طلب، استلزام، وجوب[٨] أما في الا صطلاح فهو تلك الخصوصية الزائده عن المعنى التي استدعاها الحال واقتضاها المقام، مثل انكار المخاطب حال يقتضى تاكيده، فالتأكيد هو مقتضى الحال، والمراد من مقتضى الحال الخصوصية التي تناسب الحال.[٩]

مطابقة الكلام لمقتضى الحال:

المراد عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال "فهو كون الكلام الجزئي الصادر من المتكلم اللمقى إلى المخاطب المشتمل على الخصوصية من أفراد ذلك الكلام الكلي الذى يقتضيه الحال"[١٠] أي أن الكلام إذا جاء حسب مقتضى الحال: بأن جاء مشتملاً على الخصوصية التي استدعاها المقام سمى مطابقاً لمقتضى الحال، فمثلاً إذا كان المخاطب منكراً لحدوث فعل وهذا يقتضى توكيد الكلام حسب إنكاره كما في قوله تعالى [قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون.....].[١١]

قد أكد الرسل- عليهم السلام- قولهم "بأن"، وتقديم الجار والمجرور، ثم بلام التأكيد لإنكار المخاطبين، وإذا جاء الكلام مطابقاً وموافقاً- كما في الآية المذكورة- حسب مقتضى الحال يسمى مطابقاً لمقتضى الحال، لأن الكلام قد جاء مشتملاً على ما تقتضيه الحال.

الحال وظاهر الحال والفرق بينهما:

كما ذكر سابقاً أن الحال هو الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يأتي في الكلام الذي يؤدى به أصل المراد خصوصية ما، سواءً كان ذلك الأمر داعياً في نفس الأمر أو غير داع في نفس الأمر، بأن كان افتراضياً تنزيليا، فالحال "هو الداعي مطلقا أما ظاهر الحال فهوا لأمر الداعي في نفس الأمر لاعتبار المتكلم خصوصية ما فهو أخص من الحال".(١٢)

ومن هنا ظهر "أن الحال فردان ظاهر و خفي، فالظاهر ماكان ثابتاً باعتبار ما عند المتكلم، و ظاهر الحال أخص من مطلق الحال".(١٣)

ومن هنا ثبت أن مقتضى ظاهر الحال هو أخص مطلقاً من مقتضى الحال، فكل مقتضى الظاهر مقتضى الحال، لا عكس، كما في صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر فإنه قد يكون على مقتضى الحال ولا يكون حسب مقتضى الظاهر. والحال هو الأمر الداعي إلى إيراد الكلام مكيفاً بكيفية مخصوصة سوآء كان ذلك الأمر الداعي ثابتاً في الواقع أو كان ثبوته بالنظر عند المتكلم كصور التنزيل، أما ظاهر الحال فهو الأمر الداعي إلى إيراد الكلام مكيفاً بكيفية مخصوصة بشرط أن يكون ذلك الأمر الداعي ثابتاً في الواقع فلذا كان أخص من الحال مطلقاً.(١٤)

بعد هذا التمهيد للدخول إلى صلب الموضوع نبدأ في الموضوع الرئيسي هو"العدول عن الأصل في باب التوكيد و تركه و أسراره البلاغية".

ويقسّم الباب إلى قسمين هما:

أ- التوكيد في الخبر الابتدائي

ب- ترك التوكيد في الخبر الطلبي والإنكارى.

أولاً: التوكيد في الخبر الابتدائى:

من أصول البحث العلمى فك المصطلحات الغامضة والمهمة الواردة في البحث وذكر معانيها لغة واصطلاحاً لئلا يجد القارئى صعوبة أثناء قراته، لذا أرى الأجدر ذكر معنى "التوكيد" والخبر الابتدائي "لغة واصطلاحاً. إن شاء الله....

التوكيد:

لغة: قال ابن منظور: أن التوكيد من وكّد، وفيه لغة أكّد، وكّد العهد والعقد أو ثقة..... وبالواو أفصح وقد جاء في القرآن الكريم بالواو كما في قوله تعالى: [ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها].(١٥)

اصطلاحاً:

قال العلوى(١٦) "التاكيد تمكن الشيء في النفس وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك وإحاطة الشبهات عما أنت بصدده".(١٧)

أى أن المتكلم يؤكد كلامه بأدوات التوكيد مثل (إنّ وأنّ ولام التوكيد والسين، وسوف، وضمير الفصل، والقسم) إذا كان مخاطبه يتردد ويشك أو ينكر وقوع الحدث الذي يريد المتكلم إثباته.

الخبر الابتدائى:

الخبر لغة:

"هو من خبّرت الأمر أى علمته، وخبّرت الأمر أخبره إذا عرفته على حقيقته. والخبر ما أتاك من نبأ عمّن يستخبر"(١٨) ذكر سيبويه الخبر مقابل الاستفهام(١٩) وفعل مثله الفراء.(٢٠)

اصطلاحاً:

"الخبر كل قول أفدت به مستمعه مالم يكن عنده كقولك: قام زيد، أفدته لهذا بقيامه". وهو الكلام المحتمل للصدق والكذب".(٢١)

ولا يخفى على من له نظرة في البلاغه العربية أن هناك كلاماً كثيراً حول تعريف الخبر خاصة في كتب المتأخرين الذين تغلب عليهم النزعة الفلسفية، ولن ندخل في هذه الآراء المتشعبة بل نأخذ قول الجمهور وهو أن الخبر ما يحتمل الصدق والكذب كما قال الخطيب القزوينى "اختلف الناس فى انحصار الخبر فى الصادق والكاذب فذهب الجمهور إلى أنه منحصر فيهما ثم اختلفوا فقال الأكثر منهم صدقه مطابقة حكمه الواقع، وكذبه عدم مطابقة حكمه".(٢٢)

يستعمل الخبر الابتدائي حينما يكون المخاطب خالي الذهن لا يعرف عن الخبر شيئاً، ويكون خالياً عن المؤكدات، لأن المخاطب لا يحتاج إلى التوكيد لعدم معرفته بالخبر، ولذا يرسخ في ذهنه لمصادفته بالقلب الخالي، وكل شيء يأتي في الذهن لأول وهلة يكون أرسخ وأمكن، ولذا قال مجنون بنى عامر.

أتاني هوا ها قبل أن أعرف الهوا * فصادف قلباً خالياً فتمكنا.(٢٣)

التوكيد فى الخبر الابتدائي:

خلو الخبر الابتدائي عن التوكيد هو الأصل والمألوف، ويسمى هذا إخراج الكلام على مقتضى الظاهر.

ولكن قد يقتضى المقام أن ينزل المتكلم المخاطب إلى حال مختلف عن حاله الأصلية فيجعل خالى الذهن متردداً أو منكراً، ويجعل المنكر أو المتردد منزلة خالى الذهن ولا يكون هذا التنزيل سدىً وعثباً بل لغرض بلاغي ونكتة لطيفة تخفى على عامة الناس، إذ لا يمكن معرفة هذه الدقائق البلاغية والأسرار بدون نظرة فاحصة وعلم كامل بأسرار اللغة ولطائفها.(٢٤)

ولذا يؤكد الخبر الابتدائي لأسرار و معانٍ، وهذه المعاني تفهم من سياق الكلام وأهمها:

١- تنزيال العالم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الجاهل لعدم عمله بعلمه، كقولنا للمسلم الذي لا يصوم رمضان وهو قادر على صومه "إن صوم رمضان فرض من فرائض الإسلام" رغم أنه يعرف فرضية صيام رمضان لتنزيله منزلة الجاهل.

دراسة تطبيقية في ضوء الأمثلة القرآنية:

١- تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة الجاهل:

من المعلوم أن القرآن الكريم هُو حبل الله المتين الذي أنزل لإنقاذ البشرية من ظلام الكفر والطغيان إلى نور الإيمان والإسلام ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان الباطلة إلى عدل الإسلام. كما أن أسرار القرآن وعجائبه لا تنقطع بمرور الأزمان، ومعجزاته لا تنتهى. وكل من بحث فيه وجد نفسه متحيرا أمام هذا الكتاب المعجز. ولذا فكّر العلماء في أسراره في الميادين المختلفة في مثل علم الطب و علم الفلسفة والفلك وعلم الحيوان وعلوم اللغة والبلاغة، وكل هؤلاء العلماء أخرجوا الجواهر حسب مقدرتهم العلمية وطاقاتهم، وما ادّعى أحد أن أسراره انتهت، بل كل ما فعل هؤلاء العباقرة ما هوإلا محاولات إنسانية لإخراج النكت والعجائب القرآنية.

انطلاقاً عن هذه الحقيقة أود أن أشير إلى الحقيقة أن أسرار البلاغة لا تنتهى ولا يمكن لأي إنسان أن يلم جميع وجوه البلاغة القرآنية، لأن القرآن الكريم معجز في بلاغته وأسلوبه ومعانيه، على الإنسان أن يتدبر ويُعمل فكره لا ستنباط أسراره ولطائفه.

وفيما يلي أوردنا بعض أمثلة قرآنية لتكون نماذج تطبيقية لما قلناه سابقاً.

نتأمل في قوله تعالى: [ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله عليكم

وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقو الله واعلموا أنّ الله بكل شيءٍ عليم].(٢٥)

إذا نظرنا في ما قبل الآية فنجد أنها من آيات الأحكام، وفيها خطاب للمؤمنين بقوله [وإذا طلّقتم النسا، فبلغن أجلهن فامسكهن بمعروف.....]ومن المعلوم أن المؤمن يؤمن بالله وبصفاته الخاصة، وهو يعرف أن الله تعالى عالم بكل شيءٍ، ومن هنا نجد أن الموقف ليس موقف إنكار ولا تردد، وبالتالي لا يؤكد الخبر، ولكن رغم هذا أن الجزء الأخير من الآية [واتقو الله واعلموا أن الله بكل شيءٍ عليم] موكّد "بإن" وبصيغة التنبيه "واعلموا" ووجه التوكيد أو السرّ فيه هو أن الله تعالى أمر المسلمين أن يعدلوا فيما بينهم وأن لا يظلم أحد أحداً، حينما رأى أن بعض الناس لا يؤدّون حق أزواجهم ويتركونهن كالمعلقة بعدم أداء حقوقهن أو بعدم سراحهن ذكّرهم سبحانه وتعالى بالتقوى، كما ذكّر هم بأن الله عليم واكّد الخبر تنزيلاً لهم لمخالفتهم مقاصد الشريعة منزلة من يجهل أن الله عليم، فإنّ العليم لا يخفى عليه شيء، وهو إذا علم لا يحول بين عقابه وبينهم شيء لأنه العليم القدير".(٢٦)

وكذا قوله تعالى [يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيّبت مآ كسبتم وممّا أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلاّ أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنىّ حميد ....(٢٧)

الخطاب للمؤمنين بدليل تصدير الآية ب[يأيها الذين آمنوا]ومن المعلوم أن المؤمنين يعرفون ويقرّون أن الله غنىّ حميد، رغم هذا أكد الخبر(الآية)ب "واعلموا" وب "أن" لتنزيل المخاطبين الذين نهو عن إنفاق الخبيث منزلة من لا يعلم أنه غنى حميد، فأعطوا وجهه مالا يقبله المحتاج بكل حال، ولم يعلموا أنه حميد ولا يقبل الإ من يعطى لوجهه من طيّب الكسب، أى أن الله تعالى لا يقبل إنفاق الأموال الخبيثة بل هو طيّب يحب الطيب.

ولننظر في قوله تعالى:[واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجّل في يومين فلا إثم

عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن التقى واتقو الله واعلموا أنكم إليه تحشرون][٢٨]

قد أمر الله تعالى الحجاج بذكره في الأيام المعينة ثم أمر بالتقوى وأكَد الخبر "ب" و"اعلموا" و "بأن" رغم أن الحجاج لا ينكرون البعث والحشر، إذ لا يتصور من المنكر أداء فريضة الحج فما السرّ في التوكيد؟ والسرّ أو النكة. والله أعلم. لما كان الإنسان يفكر في دائرته المحدودة، ولا ينظر إلى ما وراء المحسوسات، وهو ينظر إلى القريب وسهل المنال ولا يلتفت إلى البعيد الصعب، ولذا هو كثيراً ما ينسى الآخرة. رغم إقراره واعترافه. حتى أنه يطلب الدنيا فقط بعد أداء فريضة الحج، وهو في هذه يرى المحسوسات والمشاهدات ولا يرى إلى ماوراء المحسوسات وكثير من المسلمين ينسون الآخرة حينما يرون الدنيا، ولذا نُزّل المسلمون منزلة المنكرين حينما يخالفون الشريعة ويهتمون بالدنيا فقط ويتركون الآخرة وهم في هذه الحالة أحوج إلي التوكيد.

وكذا قوله تعالى [نساء كم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقو الله واعلموا أنكم ملٰقوه وبشّر المؤمنين] [٢٩] الخطاب للمؤمنين، وهم يعلمون أنهم سيلاقون ربّهم سبحانه وتعالى ولكن رغم هذا أكد الخبر ب "واعلموا" و "بأن" للاهتمام بالخبر الآتي ولتنزيل علمهم بالملاقاة منزلة العدم ولنسيانهم الآخرة لخفائها عن دائرة المحسوسات.[٣٠]

٢- تنزيل خالي الذهن منزلة المتردد.

وغير السائل منزلة السائل إذا قدّم إليه (غير السائل) ما يشير ويلوّح له بالخبر: فيستشرف له استشرف المتردد الطالب كقوله تعالى: [ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون][٣١] أى "لا تدعنى يا نوح في شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك، فهذا كلام يلوّح بالخبر تلويحاً مَا، ويشعر بأنهم قد حق عليهم العذاب، فصار المقام مقام تردد المخاطب في كونهم محكوماً عليهم بالإغراق

أم لا؟ فقيل (إنهم مغرقون)".[٣٢]

حينما قيل [ولا تخاطبني في الذين ظلموا]ورد السؤال في الذهن، هل حق العذاب على هؤلاء لأن الظلم مستوجب العذاب، والمخاطب في مثل هذا الموقف يكون كالمتردد والسائل الذي يريد أن يعرف الحقيقة، وهذا نموذج لخروج الكلام عن مقتضى الظاهر إذ نزّل فيهما غير السائل منزلة السائل المتردد، وأكّد الخبر، كأن نوح- عليه اسلام- يتردد في معرفة نوع العذاب[٣٣] كما أن التوكيد تعليل للنهى عن الخطاب أو الدعاء للقوم لأن الإغراق أمر حتمى لا يمكن التغير فيه.

وهنا يطرح السؤال نفسه وهو متى تتحقق هذه الصورة؟ عند تأملنا في أساليب الكلام العربي يتضح أن هذه الصورة تتحقق عند ما تكون الجملة السابقة في سياق الكلام متضمنة مايشير إلى الخبر ويلوح به، مثل هذه الجملة تثير فى نفس المخاطب تساؤلاً يجعلها تطلب حقيقة الخبر، ولذا تأتي الجملة مؤكدة لتنزيل ما أثيرفى نفس المخاطب من تساؤلات منزلة السائل والمتردد، وكثيرا ما يقع هذا عند ما تكون الجمل السابقة تتضمن الإرشاد أو الوعظ أو التوجيه أو النهى، أو الأمر أو حدثاً غريباً يستدعى وقوف النفس وتأملها.[٣٤]

إذا سمع المخاطب مثل هذه الجمل ينشأ في ذهنه سؤال واستفسار عن معرفة العلّة والسبب والسرّ وراء هذا الأمر أو النهى، أو النصح، ولذا قال السكاكي "قد يقيمون من لا يكون سائلاً مقام من يسأل فلا يميزون في صياغة التراكيب للكلام بينهما (السائل وغير السائل) وإنما يصبون لها فى قالب واحد، إذا كانوا قدموا إليه ما يلوّح مثله للنفس اليقظة يحكم ذلك الخبر فيتركها مستشرفة له استشراف الطالب المتحير يتردد بين إقدام التلويح وإحجام لعدم التصريح فيخرجون إليه مصدرة بإنّ ويرون سلوك هذه المقامات من كمال البلاغة".[٣٥]

لايمكن للرجل العادى أن يعرف النكت والأسرار الكامنة وراء التراكيب،

لأن هذه الأسرار وللطائف مثل اللآلى الموجودة في قعر البحر العميق، ولا يمكن إخراجها إلاّ بيد الغوّاص الماهر الذي قضى عمره في هذه المهنة، ولذا قال إمام البلاغيين وشيخ الشيوخ الإمام عبد القاهر الجرجاني رحمة الله عليه.

"وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض. روى عن الأصمعى أنه قال: كان أبو عمر بن العلأ وخلف الأحمر يأتيان بشاراً فيسلمان عليه بغاية الإعظام ثم يقولان: يا أبا معاذ ما أحدثت؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له، حتى يأتي وقت الزوال، ثم ينصرفان، فأتياه يوماً فقالا! ما هذه القصيدة التي أحدثتها في ابن قتيبة؟ قال هى التي بلغتكما، قالا: بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب، قال نعم، إن ابن قتيبه يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه مالا يعرف، قال فانشدناها يا أبا معاذ فانشدهما:

بكرا صاحبى قبل الهجير * إنّ ذاك النجاح في التبكير.(٣٦)

حتى فرغ منها فقال له خلف: لو قلت يا أبا معاذ "إن النجاح" كان أحسن فقال بشار: إنما بنيتها أعرابية وحشية، وقلت إنّ ذاك النجاح، كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت بكرًا فالنجاح كان هذا من كلام المولدين(٣٧) ولا يشبه ذلك الكلام، ولا يدخل في معنى القصيدة. قال فقام خلف فقبّل بين عينيه: فهل كان ما جرى بين خلف وبشّار بمحضر أبي عمرو بن العلاء وهو من فحول هذا الفن إلا للطف المعنى في ذلك وخفائه" (٤٦) أو قول الشاعر:

فغنّها وهى لك الفداء * إن غناء الإبل الحداء(٣٨)

فحينما قال الشاعر "غنّها" يشتد سيرها، صار السامع متردداً ما غناؤها أوهو الحداء أم غيره؟ فجاء الخبر مؤكداً إن غناء الإبل الحداء.

كما سبق سابقاً أن هذا غالباً ما يأتي بعد الأمر والنهى والإرشاد وغيره. كأنّ المخاطب يسأل لماذا هذا الأمر أو النهى وغيره؟ ثم يأتي التعليل أو السبب الذي يذكر سرّ هذا الأمر والإرشاد بأسلوب مؤكد ليستيقن المخاطب، أو أنه يظن

أن الخبر بعيد الوقوع كأنه يشك، وهنا ينزّل المخاطب منزلة المتردد والشاك كما في قوله تعالى [إن الذين كفروا سوآء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون][٣٩]

كان النبيﷺ حريصاً على هداية قومه وإنذارهم لعلهم يعودون وهو دائماً في رجاء لا ينقطع ومن كثرة إنذازه مع عدم الاستجابة لأنه مختوم على قلوبهم نزل منزلة من شك في عدم استجابتهم "وصدرت الجلمة بحرف التأكيد لرد الشك تخريجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر: لأن حرص النبيﷺ على هداية الكافرين يجعله لا يقطع الرجاء في نفع الإنذار لهم وحاله كحال من شك في نفع الإنذار لهم، أو لأن السامعين لما أجرى على الكتاب من الثناء ببلوغه الدرجة القصوى في الهداية يطمعهم أن تؤثر هدايته على الكافرين المعرضين وتجعلهم كالذين يشكون في أن يكون الإنذار وعدمه سواء فأخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ونزل غير الشاك منزلة الشاك".[٤٠]

وكذا قوله تعالى [إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا][٤١] حينما قال الرسولﷺ لأبي بكر رضى الله عنه "لا تحزن" تردد في نفس أبي بكر سوال وأحب أن يعرف علة النهى، كأنه سأل وتردد في الخبر ولذا جاء موكداً، "إن الله معنا "تنزيلاً له منزلة السائل المتردد".[٤٢]

إذا قرأنا القران كريم قراء ة دقيقة فنجد أنّ هذا الأسلوب شائع وكثير بحيث إن الجملة تتقدم بالنهى أو الأمر أو النصح و الإرشاد وغيره ثم يأتي الخبر مؤكداً ليكون تعليلاً وإجابة لسؤال ناشيءٍ في ذهن السامع. ولنتأمل في قوله تعالى [وما أبرى نفسى إن النفس لأمّارة بالسوء][٤٣] اختلف المفسرون في تعيين قائل هذا القول (وما أبرى نفسى...) فبعضهم قالوا أن القائل هو يوسف عليه السلام، في حين أن بعضهم صرّحوا بأن القائل هى امرأة العزيز. نحن لا نناقش هذه الأقوال

لخروجها عن صلب الموضوع، ونأتي إلى سؤال لماذا أكّد قوله (إن النفس لأمّارة بالسوء). إذا كان الكلام قول يوسف عليه السلام. فوجه التوكيد هو أنه ما ارتكب ذنباً، فلماذا ينفى التبرئة؟ رغم أنه تقى نقى، والتبرئة في مكان الشك أمر لازم كما فعل هو نفسه في إجابة دعوة الملك باشتراطه أنه لن يخرج من السجن كما حكى سبحانه تعالى بقوله [وقال الملك ائتونى به فلما جاء ه الرسول قال ارجع إلى ربّك فسأله ما بال النسوة الّتى قطّعن أيديهنّ إنّ ربى بكيدهن عليم].(٤٤) وصرح أنه لايخرج حتى يعرف سبب دخوله في السجن، ولما كان الخبر غريباً وموضع استفسار لماذا ينفى يوسف التبرئة رغم عصمته؟ أكّد بأن (النفس لأمارة بالسوء) تنزيلاً للمخاطب منزلة السائل المتردد. وأما إذا كان القول كلام امرأة العزيز فاتهام النفس ونفى التبرئة عنها من الأمور المستبعدة، ويكون المخاطب منتظراً لمعرفة العلة أو السبب، ونزل المخاطب منزلة السائل والمتردد. وجملة الأمر (إن النفس لأمارة بالسوء) تعليل (وما أبرى) إذ كثيرا ما ترتكب النفوس فى الذنوب وتأمر كثيراً بالسوء".(٤٥)

حينما نأتي إلي آية أخرى في سورة الحج يقول عز وجلّ [يآيها الناس اتقوا ربّكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم](٤٦) فنجد أنه "خوطب الناس بالتقوى، كان ذلك مخوفاً وكان المقام مقام التردد، لماذا الأمر بالتقوى هل أمامهم شيء عظيم سيقع عليهم إن لم يتقوا من غير تعيين ذلك الشيء فقيل (إن زلزلة الساعة شيء عظيم)موكداً مع تعيين شخص المخبر عنه"(٤٧) قال الزمخشري تحت الآية المذكورة "أمر بني آدم بالتقوى ثم علّل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة، لينظروا إلى تلك الصفة ببصائرهم ويتصوروها بعقولهم حتى يبقوا على أنفسهم ويرحموها من شدائد ذلك اليوم بامتثال ما أمرهم به ربهم التردي من بلباس التقوى الذي لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلاّ أن يتزدّوا به".(٤٨)

وهناك أمثلة كثيرة في القرآن الكريم منها فمثلا قوله تعالى[خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم به وصلّ عليهم إن صلوتك سكن لهم،[٤٩] وقوله (إذ قال لقمن لابنه وهو يعظه يبنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم][٥٠] وقوله [ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا][٥١] وقوله [إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا][٥٢] وقوله [وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونك ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين][٥٣] وقوله[وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا].[٥٤] في كل هذه الآيات نجد أن التوكيد جاء بعد الأمر أو النهى. في الآيات الأولى حينما قيل (وصلّ عليهم) نشأ سوال لماذا أمر الرسول بالصلوة على الأمة أجيب السوال بقوله إن صلوتك سكن لهم. والجملة تعليل للأمر بالصلوة،[٥٥] "وجملة (إن الشرك لظلم عظيم) تعليل للنهى عنه وتهويل أمره، فإنه ظلم لحقوق الخالق وظلم المرء لنفسه إذ يضع نفسه في حضيض العبودية لأخس الجمادات وظلم لأهل الإيمان الحق إذ يبعث على اضطهادهم وأذاهم، وظلم لحقائق الأشياء"[٥٦] وكذا في جميع الآيات أن التوكيد جاء بعد الأمر أو النهى ليكون هذا تعليلا ووجهاً وجواباً لسؤال مقدر بعد الأمرو النهى. وهذا يأتي في ذهن الإنسان بعد الأمرلماذا هذاالأمر ولماذا هذا النهى. والله أعلم...

٣. تنزيل خالى الذهن منزلة المنكر:

الأصل هو أن يكون الكلام خالياً عن التوكيد إذا كان المخاطب خالى الذهن، ولكن قد ينزّل العالم بالفائدة أو خالى الذهن منزلة المنكر ويؤكد الخبر كما يؤكد فى الخبرالإنكاري. وغالباً يأتي مثل هذا الأسلوب في الأحوال التالية:

١. إذا كان الخبر شيئاً معنوياً يحتاج في إدراكه والاقتناع به إلى تأملٍ وتكفير مثل "إن الاستغراق فى أحلام اليقظة لمضيعة للوقت، و "إن الفراغ

لمفسدة".

٢- أو تكون بشارة عظيمة وغير متوقعة تكاد عظمتها لا تصدق كقوله تعالى[ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون][٥٧] بحيث أن المخاطب لا ينكر هذه الأشياء ولكن حينما كانت هذه الأمور أشياء معنوية تحتاج إلى تفكير نزّل المخاطب غير المنكر منزلة المنكر، وكذا حينما كان عدم الخوف وعدم الحزن من البشارة الكبرى تكاد لا تتوقع أكد الخبر ونزل خالى الذهن منزلة المنكر.

إذا قرأنا القرآن الكريم بتأمل وتعمق نجد أن الأسلوب القرآني استخدم أدوات التوكيد لأغراض متعددة، بعضها موافقة مع الظاهر كما أن بعضها مخالفة مع مقتضى الظاهر ولكنها موافقة مع مقتضى الحال، سنحاول- بمشيئة الله تعالى- قدر المستطاع- إبراز الأمثلة القرآنية متتبعين الأسرار البلاغية والفنية.

ولنتأمل قوله تعالى [ثم إنكم بعد ذلك لميّتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون].[٥٨]

لا يمكن لأحد في العالم أن ينكر الموت، ولكن رغم هذا أكد إثبات الموت باعتبارات وإن كان مما لا ينكر لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ في الإنكار لتماديهم، والبعث باعتبار وإن كانوا ينكرونه جداً لظهور أدلته أى أنه جدير بما لا ينكر إذ ليس فيه مجال للإنكار فنزّلهم منزلة المترددين[٥٩] وقد وضحّ ابن عاشور الفكرة قائلاً أكد الخبر- بإن واللام- مع كونهم لا يرتابون فيه لأنهم لما أعرضوا عن التدبير فيما بعد هذه الحياة كانوا بمنزلة من ينكرون أنّهم يموتون[٦٠] ومن هذا القبيل قول الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها * إن السفينة لا تجرى على اليبس

فلما كان المخاطب يطلب النجاة ولم يأخذ بأسبابها ولم يسلك طرقها نزل

منزلة من يعتقد أن السفينة تجرى على اليبس، ويكفر عدم جريانها عليه، فأكد له الخبر، إن السفينة لا تجرى على اليبس.

وكذا قوله تعالى: [الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون](٦١)

نجد في الآية الكريمة أن الله تعالى يمدح الذين يصبرون في المصائب ويلجئون إلى ربهم في السرّاء والضرّاء كما أنهم يعترفون أن المالك الحقيقى هو العزيز الحكيم، فلذلك فالأصل- حسب الظاهر هو خلو الآية من أداة التوكيد- ولكن ألقى الخبر مؤكداً للاهتمام وللإشارة إلى حالة نفسية للانسان الذى أصابته مصيبة وهو في حالةٍ قلقه وصعبة، وهو ينسى أنه مع أهله وماله منحة من الله تعالى- إذ تنسيه المصيبة وتحول صعوبة الموقف وهوله بينه وبين تفكيره المتوازن ورجاحة عقله ويكون كالمنكر بحيث أن الله تعالى فعّال لما يريد، ولهذه الحالة التنزيلية أكد الخبرورشد..(٦٢)

وكذا قوله تعالى [والذين عملوا السيئات ثم تابوا وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم](٦٣) عند تأملنا في الآية المذكورة نجد أن الكلام يدور حول المؤمنين المسيئين التائبين، وهم لا ينكرون غفرانه سبحانه وتعالى ورحمته، والموضع موضع الاعتراف، ولذا خلو الخبر عن التوكيد هو الأصل ولكن رغم هذا اكّد الخبر لأنهم ارتكبوا الذنوب والمعاصي والآثام، وصاروا في غاية خوفٍ واضطراب من عذاب الله تعالى وعقابه، كلما تذكروا هذه المعاصي اقشعرت جلودهم ولانت قلوبهم ويتذكرون شدة عذاب الله تعالى وصاورا كأنهم ينكرون غفرانه سبحانه وتعالى، ولذا نزلت حالتهم وما هم فيه من خوف واضطراب منزلة من ينكر رحمة الله ومغفرته، وألقى الخبر مؤكداً (إن ربك من بعدها لغفور رحيم]ليطمئنوا وأن يثبتوا وأن لا ينسوا رحمة الله.(٦٤)

وقد يؤكد الخبر الابتدائي لتضمنه البشارة العظمى بحيث تكاد لا تتوقع ويستبعد حصولها مثل قوله تعالى: لقد رضى الله عن المؤمنين إذا يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً].(٦٥)

إذا قرأنا الآية بتعمق أنها تخبر رضاه. سبحانه وتعالى. عن المؤمنين وهذا الخبر ابتدائى لخلوأذهان المؤمنين، ولكن الله تعالى أكد ب"اللام" و "قد" للإشاره إلى أن رضاء الخالق عن مخلوقه وعباده بشارة تكاد لاتصدّق، وهو نعمة ما فوقه نعمة كما قال سبحانه وتعالى في موضع آخر (ورضوان من الله أكبر].(٦٦)

لما كانت البشارة عظيمة وغير متوقعة أكد الخبر بتنزيل الصحابة منزلة المنكر، بحيث أن البشارة تكاد لا تصدّق، ومثلها قوله تعالى: [لقد صدق الله رسوله الرؤياء بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون، فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً.(٦٧)

أكد الخبر ب"اللام" و "قد" رغم ابتدائيته للإشارة أن صدق وعد الله بدخول المسلمين المسجد الحرام بشارة عظيمة تكاد لا تصدق ونزل المسلمين منزلة المنكر لعظمة البشارة. والله أعلم.

والخلاصة قد يؤكد الخبر الابتدائى لتنزيل غير المنكر منزلة المنكر، وذلك يتحقق غالباً حينما كان الخبر شيئاً معنويا يحتاج إلى التفكير، أو يتضمن بشارة عظيمة تكاد لا تتوقع أو ظهر على المخاطب من أمارات الإنكار، وقد رأينا الأمثلة القرآنية بحيث أكد الخبر رغم عدم إنكار المخاطبين لتنزيلهم منزلة المنكر. في هذا تبرز البلاغة القرآنية.

قد نجد الآيتين متماثلتين فى الموضوع، ولكنهما تختلفان فى التوكيد بحيث أن إحداهما تؤكد بمؤكدات كثيرة والأخرى لا تكون مثلها فى التوكيد. ولننظر قوله تعالى: إِمَّا يَنَزَغَنَّكَ مِنَ الشيطنِ نزغ فاَستَعِذْ باللّهِ إنَّهُ سَمِيع عَلِيم.(٦٨)

وانظر قوله تعالى فى سورة حَمَ السجدة (وإما ينزغنك من الشيطن نزغ فاستعذ بالله إنه السميع العليم)(٦٩) فى الآية الأولى أكَد الخبر بإن" فقط وأما فى الثانية فأكد فيها بإنَ و تعريف المسند بالألف واللام، و توسط ضمير الفصل فما السرّوراء هذا؟ وللإجابة على هذا السؤال لا بدَ أن نرجع إلى ما قبل الآيتين لنتعرف على السياق،وإذا تأملنا فى الآية الأولى نجد أن ما قبل الآية الكريمة أمر بالعفو والمعروف والإعراض عن الجاهلين. أما فى الآية الثانية ففيها حكم الاستعاذة من الشيطان الرجيم وما قبلها أمر بدفع السيئة بالحسنة، وهذا من أصعب الأمور على الإنسان يقابل غلظة عدّوه بالملاينة.استخفافاً ودفعاً لشره وآذاه حتى يعود الصديق الحميم، ولا يتحقق إلامَن له نصيب وافر من الدين و حظ جزيل من الإسلام، فلما كان الأمر الذى بعث اللّه تعالى عليه أولياء ه شاقاً و صعباً حتى قال (وماَ يُلَقّاها إلا ذُوحَظّ عَظِيم). كانت و سوسة الشيطان أعظم، والمؤمن لها أيقظ، وكان الترغيب فى مدافعته أبلغ، ولذا جاء قوله (إِنَّهُ هُوَالسَّمِيعُ العلِيم) وأمّا فى الآية التى فى سورة الأعراف فإن قبلها (خُذِ العَفوَ وَأمُر بِالعُرفِ وَأعرِض عَنِ الجَاهِلِينَ) لم يعظم فيها الأفعال التى دعا إليها كما عظمت فى سورة السجدة، بل هناك بعثا على أحسن الأخلاق، ولم يخص نوعاً من المشاق كما خص فى سورة السجدة فلم تقع المبالغة فى اللفظ واقتصر فى الخبر على الأصل وهو أنه سميع عليم.(٧٠)

أى أن سرّ كثرة التوكيدات فى آية السجدة هو عظمة الأحكام والأوامر التى جاء ت من قِبلَ الخالق سبحانه و تعالى، لما كانت الأوامر عظيمة و صعبة أكد الله تعالى صفاته ليطمئن المؤمن ويرسخ فى قلبه الإيمان بأن ما يفعله يسمعه ربه سبحانه و يعلمه ولا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء. أمافى سورة الأعراف فلم تبلغ الأوامر فيها من المشاق ما بلغته آية السجدة ولذالم يؤكد بمؤكدات كثيرة.

ومن هنا نستنتج أن القرآن الكريم فى أعلى مراتب البلاغة.بحيث يوجد لكل حرف سركامن بل أسرار تخفى على كثير من الناس قديبد و على القارئ لأول

وهلة أن أساليب القرآن متشابهة فيما بينها، ولكن إذا أمعن النظر وتعمق فى الأسرار. يجد أن لكل موضع تركيبه و نظمه.

ترك التوكيد في الخبر الطلبي والإنكارى وأسرار هما البلاغية

الأصل في الخبر الطلبي توكيده استحساناً، ويجب توكيد الخبر الإنكاري، ولكن قد يخرج الكلام عن مقتضى الظاهر، ويترك التوكيد لغرض ونكتة بلاغية كامنة لا يعرفها إلا البليغ وهناك صور متعددة لهذا منها:

١- تنزيل المتردد منزلة خالى الذهن:

ويتحقق ذلك إذا لم يكن هناك داع لترددده، فلا تؤكد الخبر بأن. مثلاً يقال. للطالب المتفوق دائماً، لكنه برغم تفوقه الدائم متخوف من نتيجة الامتحان نقول له "أنت تاجح".

٢- تنزيل المنكر منزلة المتردد:

هذا يتحقق إذا كان الأمر المنكر له من الأدلة القوية ما يستدعى عدم إنكاره وإنما يجب التصديق به أو التردد فيه على أبعد حد، كقولنا لمنكر الاجتهاد "ان الاجتهاد مفيد" لأن الاجتهاد ضرورة بشرية لا مفر منه لتغير العصر والمسائل.

٣- تنزيل المنكر منزلة خالى الذهن:

نأتي هذه الصورة إذا كانت أدلة ثبوت الخبر واضحة ولو تأمل المتأمل أدنى تأمل لارتدع عن الإنكار وامتنع عنه وفي هذه الحالة لا يؤكد الخبر بأى مؤكد كقولنا لمنكر الإسلام "الاسلام حق" ولمنكر فضل العلم "العلم نافع" إذ ثبوت الحق للإسلام لا يحتاج إلى مؤكد لكثرة الأدلة والبراهين ووضوحها بحيث لو تأمل مفكر. ولو قليلا. لا متنع عن إنكاره و هكذا نفع العلم. وهذا ما فعل الفرزدق مع هشام بن عبدالملك حينما أنكر معرفته لعلى بن الحسين بقوله:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ☆ والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم ☆ هذا التقى النقى الطاهر العلم(٧١)

نجد أن الفرزدق لم يعتد بإنكار هشام و تجاهله "عليا" وألقى الخبر مجرداً

من التوكيد تنزيلاً له منزلة غير المنكر، لأنه لو أنصف ما أنكر و تجاهل، ولذا لم يعتد الشاعر بهذا الإنكار و فيه توبيخ و تبكيت لهشام إذ أنه أنكر امراً معلوماً واضحا.

إذا تأملنا أثنا قراء ة القرآن الكريم نجد آيات كثيرةً بدون أدوات التوكيد رغم أن الموقف- حسب الظاهر- يبدو موقف الإنكار أو التردد، فما السرّوالوجه في ترك التوكيد- و فيما يلى نورد- إن شاء الله تعالى- بعض الآيات القرآنية على سبيل التمثيل لا الحصر للتطبيق بعد التنظير.

ولنتأمل فى قوله تعالى: ﴿وإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ﴾[٧٢] ومن المعلوم أن هناك بعض الأشياء تسلم كحقائق مسلمة لا يمكن إنكارها، ومِن هذه الحقائق حقيقة الإيمان بالله، ولِكن نجد فى هذه البقعة من ينكر وجودالله، و يقول- نعوذ بالله-: "ليس هناك إله" وإذا نظرنا القوانين البلاغية نجد أن مثل هذا الفرد يحتاج إلى توكيدات، ولكننا نجد أن الخبر يلقى إليه خالياً عن التوكيد و يقال "الله موجود"، إذ لو استخدم هذا الملحد عقله، ورجع إلى الفطرة السليمة و فكّر فى نفسه و فى ملكوت السموت والأرض و نظر فى الأجرام الفلكية وإلى كل ما يدور حوله بتدبير مستقيم، لرجع إلى الحق ولاعترف أن العالم وما فيه لا يمكن وجوده بدون الخالق القيوم المدّبر، وهذا ما نجده فى الآية السابقة إلهكم إله واحد" إذ أنّ الآية موجهة إلى المشركين المنكرين وحدانية الله تعالى: والمناسب- حسب الظاهر- أن يؤكد الخبر بمؤكدات ولكن الأسلوب القرآنى آثر خلو الآية عن المؤكدات لتنزيل هؤلاء المنكرين منزلة غير المنكرين لعدم اعتداد بهذا الإنكار،[٧٣] إذ كثرة البراهين الساطعة والعقل السليم يدلان على أن الإله واحد فقط، ولو فكّروا و تدبّروا فى مظاهر قدرته- سبحانه و تعالى- لامتنعوا عن إنكارهم لدلالة جميع الأشياء على أنه واحد كما قال الشاعر:

و فى كل شى ء له آية ☆ تدل على أنه واحد

ومنها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ الكِتابُ لَارَيبَ فِيهِ هُدًى لِلمُتَّقِين﴾[٧٤] نجد أن فى الآية نفى الريب، رغم أن مشركى مكة كانوا ينكرون كون القرآن الكريم من الله. تعالى. ولذا نجد أن القرآن كثيراً ما تحدّى هؤلاء تحدياً واضحاً، والمناسب حسب الظاهر هو كون الخبر مقرونا بأدوات التوكيد، ولكن الأسلوب القرآنى أثر خلو الآية الكريمة عن مؤكدٍ. والسرّ فيه. والله أعلم. هو أن كتاب الله تعالى ملىء بالبراهين والأدلة الساطعة بحيث لا يمكن للبشرية جمعاء أن يأتوا مثله، ولذا قال الله تعالى: ﴿قُل لَئِنِ اجتَمَعَتِ الإنسُ وَالجِنُّ أَنَ يأتُوا بِمِثلِ هذا القرآن ولا يأتونَ بِمِثلِهِ وَلو كَانَ بَعضُهُم لَبعض ظَهِيراً﴾[٧٥] لو فكّر هؤلاء أدنى تفكير ونظروا فى أدلته وأسلوبه لوجدوا أنه كتاب عظيم من لدن حكيم خبير، ولذا انزّل ارتيابهم المشتهر منزلة العدم، وجُعل المنكرون منزلة غير المنكرين، وأتى الكلام بلا تاكيد.[٧٦]

ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم يَومَ القِيَامَةِ تُبعَثُون﴾[٧٧] الخطاب فى الآية الكريمة مُوجَّه إلى الكفار الذين ينكرون البعث بعد الموت، ولكن الخبر أكد بمؤكد واحد، والسرُّ فى هذا هو أن الله تعالى فصّل قبل هذا مراحل خلق الإنسان، ثم ذكر البعث بعد الموت للإشارة إلى أنَ الخلق الأول أصعب من الإعادة والبعث مرةً ثانية لأنَ فى الأول إيجاد المعدوم وأمّا فى البعث فإعادة الموجود. والأول أصعب من الثانى، وإذا كان الأول ليس صعباً له كما قال سبحانه﴿أَفَعيِينَا بِالخَلقِ الأوّل بَل هُم فِى لَبس مِن خَلقٍ جَدِيد﴾[٧٨] بالاستفهام الإنكارى، فكيف يصعب عليه الإعادة مرةً أخرى،[٧٩] أو أن البعث بعد الموت لظهور أدلته جدير بألا ينكر إذ ليس فيه مجال الإنكار فنزّلهم منزلة المترددين.[٨٠]

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ اَمَنوا قَالوا آمَنَّا وَإِذَا خَلوا إِلىٰ شَيٰطِينِهِم قَالُوا إِنَا مَعَكُم إِنَّمَا نَحنُ مُستَهزِءُ ون﴾[٨١] إذا نظرنا فى هذه الآية نظرة

متامل نجد أن المنافقين قدتركوا التأكيد فى كلامهم مع المؤمنين، وأكدواكلامهم حينما كانوا يتكلمون مع الكفار بإنَ رغم أن القياس يقتضى عكس ذلك، لأن المسلمين كانوا يشكون فى إيمانهم لظهور نفاقهم، وأما الكفار فكانوا متيقنين من كفرهم، وهم يعرفون أنهم ما زالوا باقين على دينهم، فجاء ت حكاية كلامهم الموافقة لمدلولاته على خلاف مقتضى الظاهر لمراعاة ماهو أجدر بعناية البليغ من مقتضى الظاهر. هو مقتضى الحال. تركوا التوكيد أثناء خطابهم المؤمنين لئلا يعرضوا أنفسهم معرض الشك فى صدقهم، لأنهم لو أكدوا الخبر لأيقظوا المسلمين إلى الشك، إمعانا منهم فى إتقان نفاقهم وإخفائه على المسلمين، ولذا جردّوا الخبر من المؤكدات لاقتضاء الحال.(٨٢)

ولا يخفى على قارئ القرآن بتأمل أن اللّه سبحانه و تعالىٰ ذكر نزول القرآن على محمد بتفصيل و فى مواضع متعددة، و فى كثير من هذه المواضع نجد أن الأسلوب القرآنى جاء خاليا عن التوكيدات رَغم أن الخطاب أو الكلام موجه إلى المشركين مثلا قوله تعالى ﴿حٰمٓ، تَنزِيلُ الكِتٰبِ مِنَ اللّهِ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾(٨٣) قد جرّد الخبر عن التوكيد على الرغم من إنكار المشركين أشد الإنكار لتنزيل المنكرين منزلة غير المنكرين لظهور الأدلة والبراهين الواضحة بكونه منزلاً منه سبحانه و تعالى، بحيث لو استعمل هؤلاء عقولهم و فكرّوا فى أسلوبه أدنى تفكر و تعمقوا فى لطائفه لا متنعوا عن إنكارهم ولصرّحوا أن مثل هذا الكتاب لا يمكن أن يكون من البشر، و فى ترك التوكيد تعريض بهولاء المنكرين لأن الأدلة كثيرة فى كون القرآن من لدن حكيم خبير فما كان حقه من أن ينكر ذلك.(٨٤)

وكذا قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ أَرسَلنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَد خَلَت مِن قَبلِهَا أُمَمٌ لِتَتلُوَ عَلَيهِمُ الَّذِى أَوحَينَا إِلَيكَ وَهُم يَكفُرُونَ بِالرَحمٰنِ قُل هُوَ رَبِّى لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيهِ تَوَكَلتُ وَإِلَيهِ مَتَابِ﴾(٨٥) وصيغة الأمر "قل" لمحمد. ﷺ. أن يقول للمشركين "هو

ربى" قد وجه إلى هؤلاء المشركين المنكرين وحدانية الله تعالى، ويدل صراحة الجزء الأول من الآية ﴿وَهُم يَكفُرُونَ بِالرَّحمٰنِ﴾ على إنكارهم الوحدانية ولكن جرد الخبر من التوكيد للإشارة إلى حقيقة هامة هو أن المشركين قد ضعفت عقولهم و قصرت تفكيرهم، و تركوا التأمل والتعمق، ولذا هم ينكرون وحدانية الإله، ولو فكر هؤلاء أدنى تفكر، ونظروا فى الآفاق والأنفس لرجعوا عن إنكارهم، ورأوا فى كل شىء ربوبيته جل وعلا.(٨٦)

وكذا فى قوله تعالى: ﴿فَلِذٰلِكَ فَادعُ وَاستَقِم كَمَا أُمِرتَ وَلَا تَتَّبِع أَهوَاءَهُم وَقُل آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللّٰهُ مِن كِتٰبٍ وَأُمِرتُ لِأَعدِلَ بَينَكُمُ اللّٰهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُم لَنَا أَعمٰلُنَا وَلَكُم أَعمٰلُكُم﴾(٨٧) وكذا قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّٰهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَينَهُم تَرَاهُم رُكَّعاً سُجَّداً يَبتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللّٰهِ وَرِضوَاناً...﴾(٨٨)

يظهرلنا بعد قراءة هاتين الآيتين أن الكلام يدور مع المشركين المنكرين، والقياس يقتضى أن يؤكد الخبر فى "الله ربنا وربكم" وكذا فى "محمد رسول الله" ولكن عرى الخبران عن المؤكدات للإشارة إلى أن ربوبية الله تعالى مما ينبغى أن تكون فوق الشك والتردد إذ الدلائل والبراهين تكفى لإثباتها، وكل من ينكر بعد هذه الأدلة الواضحة إنكاره كلا إنكار، ولذا نزل المنكرون منزلة غير المنكرين وألقى الخبر مجرداً عن التوكيد، وكذا فى "محمد رسول الله" إذ كون محمد رسولاً قضية ينبغى أن تُعترف، وترك التوكيد تنبيهاً على أنَ هؤلاء المشركين لو تأملوا حق تأمل لأدركوا خطأهم ولا متنعوا عن إنكارهم و عنادهم، وكذا قوله تعالى: ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخوَانِهِم إِذَا ضَرَبُوا فِى الأَرضِ أَو كَانُوا غُزًّى لَوكَانُوا عِندَنَا مَامَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجعَلَ اللّٰهُ ذٰلِكَ حَسرَةً فِى قُلُوبِهِم وَاللّٰهُ يُحيِى وَيُمِيتُ وَاللّٰهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٨٩) جملة ﴿هُوَاللّٰهُ يُحيِى وَيُمِيتُ﴾ ردّ على الذين اعتقدوا أن الذهاب إلى الجهاد سبب الموت، والتخلف عنه سبب النجاة، ولكن الله تعالى ردّ

اعتقادهم بقوله " الله يحيى و يميت" وهذا جواب للقول السابق، والموضع. حسب الظاهر. موضع التوكيد لإنكار هؤلاء، واعتقادهم الباطل أن القتال سبب الموت ولكن الله تعالى جرّد الخبر عن الموكّد للإشارة إلى أن الموت والحياة بيد الله تعالى، و ينبغى أن تكون القضية معلومة عند الجميع، والذين ينكرون هذه الحقيقة إنكارهم كلا إنكار، ولو فكّر هؤلاء فى قوانين الله تعالى و فى الحقائق الموجدة لأقروا أن المحى والمميت هو الله سبحانه و تعالى لأن القتال أو الجلوس فى البيت لا دخل لهما فى زيادة العمر أو نقصانه.

وكذا قوله تعالى ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مكان آية وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بل أَكْثَرهم لاَ يَعْلَمُون، قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(٩٠) إذا قرأنا الآية الكريمة تجد أن آية ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ...﴾ جواب لقولهم ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ ولذا اقتران الآية بأدوات التوكيد هو الأصل. حسب الظاهر. ولكن الآية جاء ت بدون تأكيد لإظهار الحقيقة الهامة هو أنّ كون القرآن من لدن خبير عليم أمر معلوم لا يمكن الشك أو التردد فيه، وقد نزل هذا الكتاب بواسطة روح القدس "جبريل" عليه السلام على محمد. ﷺ. وإنكار المشركين بعيد عن الحقيقة و مبنى على التعصب والعناد. ولو ترك هؤلاء عنادهم و تعمقّوا فى الأساليب القرآنية لزال ريبهم، وخلوا الخبر عن المو كد لتنزيل المنكرين منزلة غير المنكرين لكثرة الأدلة فى كون القرآن منزلاً من رب العالمين.

والخلاصة أن القرآن الكريم استعمل فى بعض الآيات أداة التوكيد و تركها فى البعض الآخر، وقد رأينا أن الأسلوب القرآنى يؤثر استخدام أداة التوكيد فى مكان لايشك فيه أحد، والعكس فى مكان آخر، والسبب والسر لهذا هوتلك الحالة التنزيلية التى فصلناها فى السابق.

الخاتمة:

ومن المعلوم أن الأسلوب القرآني يسمو أساليب البشر سموًاواضحا ولا

يمكن للإنسان أو الجن أن يصل إلى مرتبة البلاغة القرآنية لأنه المَثَل الأعلى في رعاية مقتضى الحال، وعلينا أن نتنبه أن الأسرار التى أخرجها العلماء ما هى إلا محاولات بشرية تحتمل الصواب والخطأ، ولا يَدعى أحد الكمال كما لا يستطيع أن يدعى أنه استقصى الأسرار، بل هناك أسرار و لطائف خفية لم يستطع البشر حتى الآن اكتشافها، وسوف يستمر البحث عن الإعجاز القرآني إلى يوم القيامة و سيبرز العجز البشرى، مهما وصل عقله إلى مرحلة النضج والكمال، من الإتيان مثل القرآن ولو بآية لوجود التحدى الواضح والشامل لأبناء كل عصر في قوله تعالى [قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا][٩١] صدق الله العظيم و نحن على ذلك لمن الشاهدين، وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد و على آله وأصحابه من تبعه باحسان إلى يوم الدين.

الهوامش

١- سورة الإسراء:٨٨

٢- الجرجاني، الإمام عبدالقاهر، دلائل الإعجاز، تعليق: أبو فهر محمود محمد شاكر، الناشر: (مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٨٩م) ص:٨١، و ٣٦٢

٣- ينظر تفصيل تاريخ البلاغة العربية في "تاريخ البلاغة العربية" للأستاذ الدكتور كمال عبدالعزيز وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية للأستاذ الرافعي. والبحث البلاغي عند العرب للأستاذ د/شفيع السيد.

٤- الكينة: الحالة، يقال فلان بات بكينة سوء أي بحالة سوء. لسان العرب تحت مدة "كون".

٥- ابن منظور: لسان العرب، تحت مادة "حول" و ينظر كذلك، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ت: دعدنان دروس محمد المصري، ط (بيروت،مؤسسة الرسالة) والمعجم الوسيط الصادر من مجمع اللغة العربية تحت مادة "حول".

٦- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة. شرح و تعليق: محمد عبدالمنعم الخفاجي، (مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، الطبعة الثانية)، ج:١/ص:٤١ في الهامش.

٧- الكليات لأبي البقا، تحت مادة "حول".

٨- ينظر المعجم الوسيط تحت مادة قضى.

٩- ينظر حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص، (مصر، المطبعة الكبرى الأميرية، ط:١، ١٣١٨هـ) ج:١/ص:١٢٢.

١٠- الإيضاح، ج:١/ص:٤١في الهامش.

١١- يس: ٦١/١٤

١٢- الإيضاح، ج:١/ص:٤٢.

١٣- حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ج:١/ص:١٢٣، والدكتور بدوى طبانة معجم البلاغة العربية تحت كلمة "ظاهر الحال".

١٤- ينظر الإيضاح ج:١/ص:٧٢ في الهامش.

١٥- النحل: ٩١، ينظر لسان العرب تحت مادة و "كد".

١٦- هو يحى بن حمزة بن علي بن ابراهيم العلوى اليمنى، صاحب كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز

١٧. العلوى: يحى بن حمزة، كتاب الطراز لأسرار البلاغة (مصر، دارالكتب الحديوية مطبعة المقتطف ١٩١٤م) ج:٢/ص:١٧٦.

١٨. الدكتور أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (المجمع العلمى العراقي، ط: ١٩٩٦م) تحت كلمة الخبر.

١٩. الكتاب: ج١١، ص:١١٩، ١٣٤، ١٣٥.

٢٠. هو ابو ذكريا يحى بن زياد الفَراء معانى القرآن، ت: أحمد يوسف و محمد على النجار (القاهرة، دارالكتب المصرية، ١٩٥٥م) ج:١/ص:٣٣٥

٢١. معجم المصطلحات البلاغية و تطورها ١٥. أ. د/ أحمد مطلوب تحت مادة "الخبر".

٢٢. ينظر الجرجاني، على بن محمد بن محمد على (ت:٨١٦هـ)، كتاب التعريفات، ت: إبراهيم الأبيارى (بيروت، دارالكتب، ط:١) ص ٢٩، والقزوينى، الخطيب الإيضاح في علوم البلاغة (بيروت، لبنان، دارالكتب العلمية، ط:١٩٨٥م) ص:١٨.

٢٣. ينظر السكاكي، مفتاح العلوم ص:٧٤

٢٤. ينظر الدكتور بسيوني عبدالفتاح بسيوني، كتاب علم المعاني، دراسة بلاغية و نقدية لمسائل علم المعاني، (مطبعة دارالسعادة، ميدان أحمد ماهر، شارع الجداوى رقم:١٢) ص:٤٣. وينظر كذلك د/أبو موسى، كتاب خصائص التراكيب، ص:٥١.

٢٥. البقرة:٢٣١

٢٦. التحرير والتنوير ج:٢/ص:٤٢٤.

٢٧. البقرة:٢٦٧

٢٨. البقرة:٢٠٣.

٢٩. البقرة: ٢٢٣

٣٠. ينظر التحرير والتنوير ج:٢/ص:٣٧٥.

٣١. سورة هود: ٣٧

٣٢. التفتازاني سعد الدين بن مسعود بن عمر الخراساني، مختصر المعاني ص ٢١٠، ٢١١ ضمن شروح التلخيص.

٣٣. ينظر ابن عاشور. محمد طاهر. التحرير والتنوير (دار التونسية، تونس ١٩٨٤) ج:١١٢/ص:٦ وأبو السعود القاضي محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم ألى مزايا الكتاب الكريم (لبنان، بيروت، دار احياء التراث العربي) ج:٣/ ص:٢٣

٣٤۔ ينظر بسيوني، كتاب علم المعاني، ص:٤٣۔

٣٥۔ مفتاح العلوم، ص:٧٥

٣٦۔ الهجير من الزوال إلى العصر أوشدة الحرّ۔

٣٧۔ لأنه ليس فيه دقة الإشارة إلى تنزيل غير السائل منزلة السائل المتردد وما فى قوله "إنّ ذاك النجاح" ولكن فيه " تكرير الأمر باالتبكير لتاكيده على وجه ظا هر ليس فيه دقة ذلك التاكيد الخفي والمؤلدون يؤثرون السهولة على الدقة۔

٣٨۔ الجرجاني، عبدالقاهر۔ دلائل الإعجاز، ت:محمد شاكر (مكتبة الخانجي، اقاهرة، ١٩٨٩م) ص:٢٧٢۔

٣٩۔ البقرة:٦

٤٠۔ التحرير والتنوير ج:١/ ص١٧٨

٤١۔ التوبة۔ ٤٠۔

٤٢۔ ينظر علم المعاني، ص : ٤٤

٤٣۔ سورة يوسف ٥٣۔

٤٤۔ سورة يوسف: ٥٠۔

٤٥۔ ينظر التحرير والتنوير ج:٣/ ص:١ وكتاب علم المعاني ص:٤٤۔

٤٦۔ الحج:١۔

٤٧۔ ابن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، ضمن شروح التلخيص (بيروت، لبنان، دارالكتب العلمية) ج:١/ص:٢١٢۔

٤٨۔ الزمخشرى، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل (لبنان، بيروت، دارالكتب العربي، ط:١٩٤٧) ج:٣/ص:١٤١۔

٤٩۔ التوبة۔ ١٠٣۔

٥٠۔ لقمان:١٣۔

٥١۔ الإسراء:٣٢۔

٥٢۔ ابراهيم ٤٧۔

٥٣۔ البقرة:١٩٠۔

٥٤۔ الاسراء:٨٣۔

٥٥۔ ينظر التحرير والتنوير ج:١١/ص:٢٣

٥٦. التحرير والتنوير ص: ج:١٢/ص:١٥٥.

٥٧. يونس:٦٢.

٥٨. المؤمنون:١٥-١٦.

٥٩. الطيبي، العلامة شرف الدين حسين بن محمد كتاب التبيان في علم البيان والبديع والمعاني (عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ت، د/ هادى عطية ص:٥٣.

٦٠. ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج:١٨/ص:٢٦.

٦١. البقرة:١٥٦.

٦٢. ينظر التحرير والتنوير:٢/ ص:٢٢

٦٣. الأعراف:١٥٣.

٦٤. ينظر علم المعاني ص:٤٩.

٦٥. الفتح:١٨.

٦٦. التوبة:٧٢.

٦٧. الفتح: ٢٧.

٦٨. الاعراف: ٢٠٠.

٦٩. حم السجدة:٣٦.

٧٠. ينظر الإسكافي، الإمام أبو عبدالله محمد بن عبدالله الخطيب (ت:٤٢١هـ) كتاب درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز (مصر،مطبعى دارالسعادة ط١،١٩٠٨م).

٧١. ينظر الصعيدي، عبدالمتعال، بغية الإيضاح (مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٨م) ج:١/ص٣٤.

٧٢. البقرة: ١٦٣، والنحل ٢٢، والحج:٣٤.

٧٣. ينظر علم المعاني: ص:٤٩.

٧٤. البقرة:١.

٧٥. الإسراء:٨٨.

٧٦. ينظر البابرتي (:٧٨٦) شرح التلخيص، ت:محمد مصطفى رمضان صوفة، (ليبيا، المنشأة العلمية) ط:١، ١٩٨٢) و ينظر التحرير والتنوير ج:١٨/ص:٢٦

٧٧. المؤمنون، ١٦.

٧٨- ق:١٥.

٧٩- ينظر التحرير والتنوير ج:١٨/ص:٢٦.

٨٠- ينظر الطيبي، كتاب التبيان في علم المعاني والبيان والبديع ص:٥٣.

٨١- البقرة:١٤.

٨٢- ينظر التحرير والتنوير ج:١/ص:٢٩١.

٨٣- غافر:٢، فصلت:٢، الجاثية:٢، الأحقاف:٢.

٨٤- ينظر التحرير والتنوير ج:٢٤/ص:٧٩.

٨٥- الرعد:٣٠.

٨٦- ينظر علم المعاني ص:٤٧.

٨٧- الشورى:١٥.

٨٨- الفتح:٢٨.

٨٩- آل عمران:١٥٦.

٩٠- النحل، ١٠١، ١٠٢.

٩١- الإسراء:٨٨.